في خطى السينودس

الإرشاد الرسوليّ «رجاء جديد للبنان»

بعض المفاتيح لقراءته

الأب تُوم سيكينغ اليسوعيّ *

إنّ الإرشاد الرسوليّ الذي نتج من السينودس، وعنوانه رجاء جديد للبنان[1] هو وثيقة من نوع أدبيّ خاصّ. فمَن يُخطئ في تحديد هذا النوع الأدبيّ يلتبس عليه معنى الوثيقة كلّ الالتباس.

مع أنّ الموضوعات التي يتطرّق إليها الإرشاد هي وافرة، فثمّة موطن قوّة يتخلّل جميع صفحات الوثيقة، بصفته يعكس، على حدّ سواء، تجانس نظرات أعضاء السينودس وتناسق أفكار البابا وثباتها في شأن لبنان، ولا سيّما في ما يتعلّق بدعوته الخاصّة. إنّ ما تمتاز به الوثيقة أوّلًا هو الوحدة في التنوُّع، على المستوى الكنسيّ والمستوى القوميّ.

(*) أستاذ علم الاجتماع الدينيّ في جامعتَي القدّيس يوسف (بيروت) والروح القدس (الكسليك). خبير لدى أمين السرّ الخاصّ بالسينودس من أجل لبنان، وخبير في لجنة متابعة السينودس.

(١) «الإرشاد الرسوليّ الناتج من السينودس: رجاء جديد للبنان. من قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني إلى البطاركة والأساقفة والإكليرس والرهبان والراهبات وإلى جميع المؤمنين في لبنان». – طُبع هذا المقال قبل صدور نصّ الإرشاد بالعربيّة. لذا فالاستشهادات التي سترِد في الدراسة هي من ترجمة المجلّة.

من الواضح أنّ التعليق التالي لا يمكن أن يشمل جميع الموضوعات الواردة في الوثيقة، بل يقتصر سعيي على إظهار تناسق هذه الموضوعات واستخلاص بعض النتائج.

النوع الأدبيّ الخاصّ بالإرشاد

إنّ الإرشاد يتطرّق إلى العديد من المسائل. فهو يذكر أنّ:

«آباء السينودس لم يهملوا أيَّ وجه من وجوه حياة المؤمنين الشخصيّة والعموميّة، والدينيّة والسياسيّة»[٢].

فهو يظهر إلى حدّ ما بمظهر جدول. ذلك بأنّ أحد أطرافه هو تزويد المؤمنين التوجيهات العائدة إلى المسائل الكثيرة التي قد يواجهونها. فنحن هنا أمام نصّ مرجع، من الأفضل أن يُرجع إليه عند الحاجة من أن يُقرأ من أوّله إلى آخره.

في الفصل الأوّل، وضع الكنيسة الكاثوليكيّة الحاليّ في لبنان، يوضّح العديد من المبادئ التي يأتي ذكرها بعد ذلك. فيمكن اعتبار الفصل الأوّل هذا خلاصة مكثّفة عن التفكير الوارد في الوثيقة.

أمّا الفصل الثاني، فهو من نوع يختلف كلّ الاختلاف، لأنّه يأتي بأفكار لاهوتيّة ترتكز عليها جميع الشروح التابعة. والهدف من الفصل الثاني ليس التعبير عن أفكار جديدة، بل هو بمثابة تعليم لا يستغني عنه مَن يريد أن يفهم كما يجب سائر الفصول التي تمتاز بطابعها العمليّ.

وبالرغم من هذا التنوُّع، ينتمي النصّ إلى نوع أدبيّ واحد يشرح لنا كيف يجب أن نقرأه ونستخدمه.

ولكي نفهم ما هو ذلك النوع الأدبيّ، يجب أن ندرك ما يريد أن يحقّقه. وهذا ما نجده في الكلمات الأُوَل، أي إعطاء لبنان عامّة والمسيحيّين الكاثوليك خاصّة رجاءً جديدًا. يدهشنا أوّلَ وهلةٍ أنّنا ننتظر أملًا جديدًا نجده في نصّ من النصوص، إذ لا يخفى على أحد ما أسهل

(٢) الإرشاد، عدد ٣٢.

إخفاء هذا النصّ في دُرج وإهماله. فلكي يستطيع أن يُحدث حركة، لا بدّ أن يلبّي بعض الشروط المعيَّنة.

على هذا النصّ أوّلًا أن يتحدَّث عن الواقع كما هو. فإن رأى القارئ أنّ بعض المشاكل أُخفيت، وأنّه لا يجد ذلك الواقع الذي يعيشه كلّ يوم، فهو يرفض النصّ رفضًا تامًّا. وإذا صحّ أنّ شيئًا من التشاؤم وفتور الهمَّة يعمر قلوب العديد من اللبنانيّين، فلا شكّ في أنّ أوّل شروط الإصغاء هو الاعتراف بمشاكلهم. وليس من باب المصادفة أن يذكّر نداء السينودس في خاتمته بما جرى لتلميذي عمّاوس (لو ٢٤/١٣-٣٥)، لهذَين الرجلَين اللذين بردت همّتهما بعد موت يسوع. فإنّ هذه البرودة انقلبت إلى اندفاع حماسيّ. إن مجلس الآباء الذي انعقد في رومة عاش اختبارًا مماثلًا. واليوم، يعود الإرشاد إلى النصّ الإنجيليّ نفسه[٣]، ونرى البابا، في تقديمه الإرشاد إلى الشبيبة في حريصا، يشرح لهم ما كتبه القدّيس لوقا. فلا شكّ في أنّ هذه النقرة الإنجيليّة هي مفتاح لتفهّم الهدف الذي ينشده الإرشاد الرسوليّ، وهو إعادة الأمل لأناس فقدوه. نرى أنّ الربّ يسوع نفسه يبدأ بطرح الأسئلة على التلميذين، لكي يعبّرا عن الأسباب التي أدّت إلى فتور همّتهما. ثمّ إنّه يعيد تفسير هذه الأسباب بطريقة تجعلهما، بدلَ أن يعودا إلى بيتهما خائرَي العزيمة، يلحقان بطريق التلاميذ في رسالتهم.

تفترض استعادة الهمّة إذًا الانطلاق من الواقع. والاعتراف بالحقيقة كلّها هو أمر مهمّ في أيّامنا، بما أنّ اللبنانيّين كثيرًا ما يشكون، لا من قلّة الاعتراف بالحقيقة وحسب والاعتراف بها صراحةً، بل من النهي أحيانًا، على ما يبدو، عن الاعتراف بها. فنسمع بيار تجم، في خطابه إلى البابا، باسم شبيبة لبنان، يقول: «نسألك، أنت الذي جاء ليزرع الأمل، أن تقول بصوت عالٍ ما نخشى أن نقوله، وما فقدنا العادة أن نعبّر عنه»[٤].

---

(٣) الإرشاد، عدد ٢٩.

(٤) نصّ نُشر في جريدة *L'Orient-Le Jour* في ١١/٥/١٩٩٧.

فالإنسان الذي فترت همّته يحتاج إلى أن يسمع التعبير عن أسباب برود همّته. ومع ذلك، فإنّ هذا التعبير وحده لا يمكن إلّا أن يزيد همّته فتورًا، ولن يقوم بأيّ عمل، ما لم تكن هناك أسباب تجعله يأمل أنّ عمله سيؤدّي إلى نتيجة. ولذلك، فالهدف الثاني الذي يتوخّاه الإرشاد هو تزويد المسيحيّين اللبنانيّين توجيهاتٍ وسبل عمل. سبق أن ورد في النداء أنّ «الرجاء يعني الالتزام»، فالإرشاد يردّد العبارة نفسها[٥]. يُراد بالنصّ أن يحدّد هدفًا وعملًا يُكلَّل بالتحقيق. وأفضل طريقة لإيقاظ إنسان خائر العزيمة هي أن يقال له: أنتظرُ منك شيئًا، إذ إنّ عندك مهمّة يجب عليك أن تقوم بها، وأنّ السبل لا تنقصك. فالإرشاد، مع أنّه يعترف بما يواجهه الإنسان الخائر العزيمة من عقبات، لا يسعى للرثاء لحاله وللإقرار له بالحقّ، لأنّ مثل ذلك العزاء لن يساعده على النهوض، بل يقول له بالأحرى: بالرغم من جميع صعوباتك، لا تنقصك سبل العمل والقيام بواجباتك. فلا تتردّد.

لقد أراد بعض المعلّقين أن يقارنوا الإرشاد بالنداء الذي نُشر في ختام انعقاد الجمعيّة السينودسيّة، والذي يقرأ النصّين عن كثب يلاحظ أنّ الإرشاد يتبنّى تمامًا وبدون قيد أو شرط مضمون النداء. لكنّه، حين يتطرّق إلى الأمور نفسها، يستعمل أسلوبًا مختلفًا. وأفضل دليل على ذلك قد يكون الفقرة الشهيرة التي تختصّ باستقلال لبنان والتي أثارت العديد من التعليقات.

عبَّر النداء عن بعض المطالب:

«أن تُعاد سيادة البلد على أرضه، بتحريره من الاحتلال الإسرائيليّ، تطبيقًا لقرارات الأمم المتّحدة. ومن جهة أُخرى، يجب أن يُترجَم السلام الداخليّ برحيل القوّات السوريّة وامتداد حضور الجيش اللبنانيّ إلى مجمل الأرض القوميّة[٦] (...). ونطلب بإلحاح إلى الدولة أن يُوضَع حدّ

(٥) نداء الجمعيّة الخاصّة بمجمع الأساقفة (السينودس) من أجل لبنان، عدد ٣ - الإرشاد، عدد ٣٢.

(٦) النداء، عدد ٥٠.

للاعتقالات التعسُّفيّة، إلخ[٧].

أمّا في الإرشاد فقد ورد أنّ البابا:

«يعي أهمّ الصعوبات الحاليّة: الاحتلال المنذر بالمخاطر في جنوب لبنان، وأوضاع البلد الاقتصاديّة، وحضور القوّات المسلّحة غير اللبنانيّة على أرضه، وعدم حلّ مشكلة المهجّرين حتّى الآن، وخطر التطرّف وشعور بعض اللبنانيّين بأنّهم محرومون حقوقهم».

إنّ الملاحظات الأساسيّة هي هي، واستنكار الوقائع أيضًا، لكنّ البابا في الإرشاد لا يطلب شيئًا إلى أيٍّ كان: لا تطبيق قرار الأمم المتّحدة رقم ٤٢٥، ولا رحيل الجيوش السوريّة، ولا عودة المهجّرين إلخ. فهو يعتبر أنّ دور الإرشاد الرسوليّ ليس التعبير عن المطالب الخاصّة بالدولة اللبنانيّة ولا الأمم المتّحدة ولا الدول المجاورة، لأنّ الإرشاد غير موجَّه إليها، بل ما يطلبه هو أن يُقدم المسيحيّون اللبنانيّون على العمل، بالرغم من الاعتراف بتلك الصعوبات، وألّا يجعلوا من تحقيق مطالبهم العادلة شرطًا للالتزام بالعمل. إنّه يطلب:

«الكثير من التضحيات، وترويضًا شخصيًّا دائمًا للنفس، يقوم على مطالبة النفس قبل مطالبة الآخرين، وحضورًا فاعلًا وجريئًا وثابتًا لقضايا المجتمع»[٨].

ندّد النداء تنديدًا يخلو من الالتباس المحتمَل ببعض التجاوزات، وكان لا بدّ من هذا التنديد. ولقد ارتاح الكثير من اللبنانيّين، لأنّ الأشياء اتّضحت أخيرًا، وسخط غيرهم لأنّهم كانوا على رأي مناقض، أو لأنّهم كانوا يرغبون في عدم ذكر تلك المشاكل الحقيقيّة. إنّ تحديد أماكن المشاكل هو شرط لا غنى عنه لبعث الرجاء. ولكن ذلك لا يكفي، فإنّ البابا يتّخذ موقفًا مختلفًا، من غير أن يتجاهل ملاحظات النداء، معتبرًا أنّ الاكتفاء بالتعبير عن الانتقادات يُخشى أن يدعو المسيحيّين اللبنانيّين إلى الكسل. فهو يعبّر عن الانتقادات نفسها بأسلوب مختلف، ويُظهرها بمظهر

---

(٧) النداء، عدد ٥٢.

(٨) المرجع نفسه.

التحدّي. يسمّيها «صعوبات» ويعترف بأنّها تثير المخاوف عند بعض الناس، وتدفع إلى مغادرة البلد عند غيرهم. ويدعو المسيحيّين إلى عدم التأثّر بها. وهذا ما يُسمّى بثّ الأمل والاعتراف بالوقائع والدعوة إلى العمل.

وعلامَ يرتكز هذا الرجاء؟ وما الذي يمكّن المسيحيّين من الإقدام على العمل من دون نيّة ميِّتة، بل بثقة بأنّ هذا العمل سيأتي بثماره؟ أفلم يلاحظ النداء جسامة الصعوبات والعقبات؟ ولكي يجرؤ الإنسان على الانطلاق وعلى تجاوز التشاؤم والمخاوف، لا بدّ من دافع وثقة لا يتزعزعان. وهذا أمر ممكن عند المسيحيّ، سبق لموضوع الجمعيّة السينودسيّة أن عبَّرت عنه بقولها: المسيح هو رجاؤنا. إنّه الرأس والراعي، وهو يُرشد كنيسته، ويسير على الطريق معنا، ويهب روحه للمسيحيّين ويرافقهم في الأوضاع الراهنة التي تتّسم بها حياتهم اليوميّة. إنّ هذا الروح هو الذي يحرّك المسيحيّين.

فالأمل لا يرتكز على تحليل الوقائع وحده، بل هناك أيضًا اليقين الراسخ بأنّ الطريق المعروضَ علينا هو الطريق الذي يهدي إليه الروح القدس في أيّامنا الكنيسة في لبنان. عَمِل هذا الروح في أثناء انعقاد الجمعيّة السينودسيّة، وفي أثناء تداولات الآباء، وعَمِل أخيرًا عَبرَ تحرير هذا النصّ نفسه. إنّه الروح الذي عَمِل على التجديد[٩]، وهو الذي أرسله يسوع المسيح، رجاء المسيحيّين الأوحد[١٠].

وما يجب أن يتغيَّر ليس هو الوضع بقدر ما هم الناس. فالنصّ يتحدَّث عدّة مرّات عن تغيير العقليّة وعن تحوّل جذريّ. وإذا تغيَّر الناس، تغيَّر الوضع. ولكن، إن انتظروا أن يتغيَّر الوضع، بقي كلّ شيء على حاله. ولهذا السبب خاصّةً يُعلن موضوعُ السينودس أنّ المسيح هو رجاؤنا وأنّ روحه هو الذي يجدّدنا[١١].

---

(٩) الإرشاد، عنوان عدد ٣٨.

(١٠) الإرشاد، عدد ٢٧-٣٦.

(١١) موضوع الجمعيّة السينودسيّة: المسيح رجاؤنا: بروحه تجدَّد، وممّا للمحبّة نشهد.

وإذا كان هدف الوثيقة ما سبق، فلا عجب أن لا يذكر إلّا القليل من المطالب، وأن لا يسعى لتسمية المسؤولين عن الأزمات والمظالم. فهو يقتصر على القول للمسيحيّين خاصّةً وللبنانيّين عامّةً ما هو وضعهم وما يُطلب إليهم للخروج من هذا الوضع، ولإقامة كنيسة جديدة ولبنان جديد. والذي لا يريد أن يغلط في قراءة هذا النصّ، عليه أن يقرأه انطلاقًا من قاعدته اللاهوتيّة التي وردت في الفصل الثاني، المُعَنوَن في الكنيسة، بناء الرجاء على المسيح[١٢]. فالقناعات والمبادئ المعبَّر فيه عنها هي مصدر التوجيهات والتوصيات الصادرة. وإن غابت تلك القاعدة، تصبح التوجيهات والتوصيات غير واقعيّة وبعيدة عن الإدراك.

فكرة أساسيّة: الوحدة في التنوّع

إنّ فكرة الوحدة في التنوّع تتخلّل سياق الإرشاد، كما نراها حاضرة عَبرَ جميع المداخلات والتداولات التي تمّت في الجمعيّة السينودسيّة التي انعقدت في رومة. نجد في لبنان ستّ كنائس كاثوليكيّة في داخل كنيسة واحدة، كما أنّنا نجد ثماني عشرة طائفة في داخل وطن واحد. قد يكون الحلّ الرخيص جعلَ الكنائس الستّ كنيسة واحدة، وتجميعَ الطوائف الثماني عشرة تحت قاسم مشترك واحد. لكنّ الإرشاد يرفض مثل هذه النتيجة، لأنّها تعبّر عن زوال لبنان. إنّ البابا وجميع الذين تعاونوا، من بعيد أو من قريب، في السينودس، أرادوا أن يعيش لبنان في كامل تشعّبه، ورأوا أنّ له دورًا مهمًّا في المنطقة وفي خارجها، لأنّ مستقبل لبنان يكمن في توازن بين حقّ التنوّع والهويّة الخاصّة من جهة، وبين واجب اعتبار هذا التنوّع غنى لجميع المواطنين من جهة أخرى. ولقد وُصف دور لبنان الخاصّ هذا وصفًا جيّدًا في ختام النصّ:

«لأنّ لبنان مؤلّف من عدّة طوائف بشريّة، فإنّ معاصرينا ينظرون إليه وكأنّه أرض مثاليّة. ذلك بأنّ أناسًا مختلفين على الصعيد الثقافيّ والدينيّ مدعوُّون اليوم كما في الأمس إلى العيش معًا على أرض واحدة، لبناء أمّة قائمة على

---

(١٢) الإرشاد، عدد ١٨-٣٦.

الحوار والعيش المشترك، وللإسهام في الخير العامّ. هناك طوائف مسيحيّة وإسلاميّة تجتهد اليوم في جعل تراثاتها أكثر حيويّة. إنّ هذه الحركة هي إيجابيّة وفي إمكانها أن تساعد على إعادة اكتشاف ثروات ثقافيّة مشتركة ومتكاملة توطّد العيش المشترك القوميّ»[١٣].

هذا هو حقّ كلّ واحد.

لكنّ ذلك الحقّ يتضمّن واجبات أيضًا:

«إنّ الفوارق والخصوصيّات في حضن المجتمع، والميل إلى الاكتفاء بالمصالح الشخصيّة أو الجماعيّة، يجب أن تنزل إلى المرتبة الثانية. فالوحدة هي المسؤوليّة الملقاة على عاتق كلّ واحد منكم وكلّ طائفة ثقافيّة ودينيّة. وعليها أن تُلهم مساعي الجميع في الحياة الاجتماعيّة. فلا يخاف بعضكم من بعض، بل يتمّ كلّ شيء لكي تُراعى مختلف العناصر المركّبة وتشارك تمامًا في الحياة المحلّيّة والقوميّة. وهذا ما يتطلّب جهودًا مستمرّة وثابتة والاهتمام بحوار واثق ودائم»[١٤].

ولكن، لكي يتمّ الاعتراف بالحقوق والواجبات، ثمّة بضعة شروط. وإن لم تُراعَ هذه الشروط، يُخشى أن يخلو لبنان من السكّان، عن طريق الهجرة إلى الخارج، أو عن طريق ما سُمّي أحيانًا بالهجرة الداخليّة، أي الانسحاب من الحياة القوميّة في انعزال تامّ.

«ما من جماعة روحيّة يمكنها أن تعيش، إن لم يتمّ الاعتراف بها، أو إن لم تتمكّن من المشاركة التامّة في حياة الأمّة. لأنّ أعضاءها تستهويهم فكرة الذهاب إلى بلاد أخرى، والبحث عن أجواء أكثر أخوّة، وعن أسباب عيشهم وعيش عائلاتهم»[١٥].

ومع ذلك فإنّ تحقيق تلك الشروط لا يمكن أن تطالَب به شخصيّة غامضة وقديرة تستطيع أن تحقّقها بإجراء معجزة. فإنّ تحقيقها منوط أيضًا باللبنانيّين. ولذلك يُواصل النصّ قوله:

«أدعو إذًا جميع أعضاء الكنيسة الكاثوليكيّة إلى التمسّك بأرضهم،

---

(١٣) الإرشاد، عدد ١١٩.

(١٤) المرجع نفسه، عدد ١٢٠.

(١٥) المرجع نفسه، عدد ١٢١.

مهتمّين بالمشاركة التامّة في الجماعة القوميّة، والمساهمة في إعادة بناء ما هو ضروريّ للعائلات والمجموعات، والمحافظة على خصوصيّتهم المسيحيّة وحسّهم الإرساليّ، على مثال الذين سبقوهم»[١٦].

وهناك دعوة مماثلة توجّه إلى أعضاء «سائر العناصر التي تؤلّف الأمّة». وأخيرًا، تعترف الفقرة نفسها بأنّ التحقيق ليس متوقّفًا على اللبنانيّين فقط:

«من الواضح أنّ ذلك يفترض أن يستعيد البلد استقلالًا تامًّا، وسيادة كاملة وحرّيّة تخلو من الالتباس»[١٧].

إنّ تلك الفقرات المأخوذة من خاتمة الإرشاد تضعنا في أجواء مجمل النصّ الذي يتّسم بتوازن دائم بين حقّ التنوّع وواجب الوحدة. وما يُخشى من مثل هذا النصّ أنّ كل واحد يتّخذ منه ما يناسبه ويتجاهل ما لا يُعجبه. فردود الفعل المؤيّدة، لا بل الحماسيّة، بعد نشره، لا بدّ من تقديرها بشيء من الارتياب. وفي الواقع، يبدو الإرشاد تحذيرًا من خطرَين قاتلَين يترصّدان لبنان.

أوّلًا خطر تحويل التنوّع الثقافيّ والدينيّ إلى نمط واحد مفروض يحلّ محلّ مثال الوحدة العضويّة الأعلى، حيث يجد كلّ عنصر مكانه الخاصّ في حضن مجموعة، مع بقائه مختلفًا عن سائر العناصر.

والخطر الآخر هو تحويل التنوّع الثقافيّ والدينيّ إلى أولويّة مطلقة، فتصبح كلّ وحدة حقيقيّة مستحيلة.

فالذين تستهويهم فكرة الخصوصيّة، يطلب السينودس إليهم أن يعملوا بنشاط للخير العامّ وأن يندمجوا، لا في المجتمع اللبنانيّ وحسب، بل في مجموعة الشرق الأدنى العربيّ الثقافيّة أيضًا.

والذين تستهويهم فكرة النمط الثقافيّ والسياسيّ الواحد، يطلب السينودس إليهم أن يحترموا حقّ الجميع، لا في التنوّع وحسب، بل في

---

(١٦) الإرشاد.
(١٧) المرجع نفسه.

المشاركة الفعّالة في بناء مجمل المجتمع: إذ لا يجوز أن يشعر أحد بأنّه محروم، بسبب هويّته الخاصّة.

الوحدة والتنوُّع في حضن الكنائس

إنّ المشكلة محدَّدة المعالم:

«إنّ إحدى الميزات التلقائيّة التي تتّسم بها الكنيسة الكاثوليكيّة في لبنان هي أنّها، في آن واحد، واحدة ومتعدِّدة. وهي ليست عبارة عن تجانب أبرشيّات على الأرض، بقدر ما هي تشابك كنائس بطريركيّة مستقلّة ونيابة رسوليّة لاتينيّة، متّحدة جميعًا بالإيمان الواحد، والأسرار الواحدة والشركة التامّة في الإيمان والمحبّة مع أسقف رومة، خليفة بطرس الرسول»[١٨].

ويجب على تلك الكنائس الكاثوليكيّة الستّ أن تحتفظ بهويّتها الخاصّة وتحافظ على تراثها الخاصّ.

«فلا ينبغي أن يُبحَث عن الوحدة في النمط الواحد، بل في بذل النفس وإمكانيّاتها، وفي المحبّة التي توحّد جميع الكنائس»[١٩].

وفي الأساس اللاهوتيّ الذي يرتكز عليه الإرشاد، خُصِّصت فقرة طويلة بلاهوت «الكنيسة، سرّ الشركة»[٢٠]. وهي تُظهر بوضوح كيف أنّ مثال الكنيسة الكاثوليكيّة الأعلى ونموذج الكنيسة في لبنان يلتقيان.

ومع ذلك، فإنّ تلك الكنائس تجد أنفسها على الأرض اللبنانيّة في وضع متشعّب. فمن جهة، تبحث أيضًا كلّ واحدة منها منذ وقت طويل عن فرض نفسها، وكثيرًا ما يكون ذلك إلى جانب الكنيسة الأخرى، وأحيانًا ضدّها. ومن جهة أخرى، تتشابك الولايات القضائيّة والمسؤوليّات والمبادرات الرعويّة فيكون تنظيم المجموعة المنطقيّ عسيرًا. حيال هذه الصعوبة، يأتي رد فعل الإرشاد مزدوجًا.

---

(١٨) الإرشاد، عدد ٨.

(١٩) المرجع نفسه، عدد ٢١.

(٢٠) المرجع نفسه، عدد ١٩-٢٦.

أوّلًا، يعترف الإرشاد بذلك، مطالبًا، باستخدام كلمات النداء شبه الحرفيّ:

«ما يجب تعزيزه هو أكثر من تنظيم جديد، إنّه «عقليّة جديدة» لا بدّ أن تؤثّر بلا تردّد في كلّ كنيسة بطريركيّة، فلا تهتمّ بعد اليوم اهتمامًا دائمًا بتأكيد الفوارق، بل بالتشديد على الوحدة، مع مراعاة التنوّع»[٢١].

ثمّ إنّه يجب التفكير أيضًا في التنظيم. هناك هيئة تنسيق واحدة بين مختلف الكنائس، وهي مجلس بطاركة وأساقفة لبنان الكاثوليك. وهذه الهيئة هي التي ينبغي تقويتها، بتزويدها عناصر بشريّة وتجهيزات تليق بها. ويجب ألّا تكون هذه المؤسّسة مجرّد مجلس أساقفة. والإرشاد الرسوليّ يطالب هنا وهناك بمشاركة بعض الكهنة والشمامسة والرهبان والراهبات والعلمانيّين[٢٢]. لا بدّ إذًا أن يصبح هذا المجلس أداةً لكلّ عمل مشترك في الحقل الرعويّ وفي الحقل الاجتماعيّ والثقافيّ على السواء.

ولقد أُنشئ

«لكي تصبح الكنيسة في لبنان ينبوع تكامل وازدهار لجميع أبنائها، لا بل شهادة دائمة لوفاق وتعاون مثمر بين جميع اللبنانيّين»[٢٣].

من النادر أن يشير الإرشاد إلى تدابير ملموسة يجب اتّخاذها، إذ إنّه يترك هذه المبادرات لمسؤوليّة كلّ واحد. فيحسن بنا أن نشدّد على القليل من التدابير التي أشار إليها. بعد أن تمنّى البابا أن يهتمّ مجلس البطاركة والأساقفة بتوزيع الإرشاد وتشجيع تطبيقه، نقرأ ما يلي:

«إنّ الحاجة ماسّة إلى أن يُعدّ مجلس البطاركة والأساقفة «توجيهات رعويّة موحّدة» في المجالات التي تستطيع فيها الكنائس البطريركيّة الكاثوليكيّة أن تمارس معًا مسؤوليّاتها وعملها الرعويّ (...)، ويحسن خاصّةً أن تُدرس إمكانيّة إنشاء مجلس رعويّ على مستوى مجلس البطاركة والأساقفة، لإشراك جميع أعضاء شعب الله في رسالة الكنيسة»[٢٤].

---

(٢١) الإرشاد، عدد ٩.
(٢٢) على سبيل المثال، عدد ١١ و٨١.
(٢٣) المرجع نفسه، عدد ٢١.
(٢٤) المرجع نفسه، عدد ٨١.

الوحدة في التنوُّع: فئات المسيحيّين

إنّ التنوّع في حضن الكنيسة بلبنان لا ينحصر في التنوُّع بين مختلف الكنائس البطريركيّة. فهناك التنوُّع الذي يميِّز فئات المسيحيّين، ولا سيّما بين الإكليرس والعلمانيّين عامّةً، بين الكهنة والرهبان والراهبات والعلمانيّين خاصّةً، لا بل بين فئات العلمانيّين المختلفة، كالشبّان والنساء. ففي العالم كلّه، لا في لبنان وحسب، تبدو الكنيسة جسمًا عضويًّا يجد فيه كلّ عضو مكانه.

«لم تظهر هذه الرغبة في التعاون والانفتاح على مستوى مختلف الكنائس المحلّيّة في إجمالها وحسب، بل على مستوى مختلف الفئات التي تؤلّف شعب الله. ويحقّ لكلّ واحد أن يكون موضع احترام في سعاه الروحيّ الخاصّ، وعلى الجميع أيضًا أن يلتزموا التحاور مع إخوتهم. ولا بدّ أن توضع المواهب الروحيّة والبشريّة في خدمة الجميع، بفضل بحث مشترك عن الحقيقة في المحبّة»[٢٥].

إنّ التشديد على ذلك التنوُّع يتّخذ أهمّيّة خاصّة في تجديد الكنائس. إذ إنّ العديد من العلمانيّين ومن أعضاء الإكليرس عرفوا، بفضل تربيتهم، أنّ في حضن الكنيسة مسؤولين (الإكليرس، المؤلّف من الأساقفة أوّلًا، ثمّ من الكهنة) والذين يتبعونهم (العلمانيّين). أمّا الرهبان والراهبات، فإنّهم يكوّنون مجموعة شبه وسيطة بين الفئتين. ولمّا أُعلن عن الدعوة إلى سينودس - في ١٩٩١ - كانت الكنيسة تمرّ بأزمة شديدة، لأسباب اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة، أكثر منها لأسباب دينيّة بكلّ معنى الكلمة. ولقد تجسّدت موجة الانتقادات هذه في عدد الأجوبة الكبير التي أُرسلت إلى أمانة سرّ السينودس، التي كانت مكلّفة بإعداد وثيقة عمل أولى. وإذا صحّ أنّ جميع الأجوبة لم ترد كلّها مفصّلة، فإنّ الانتقادات وجدت طريقها في «الخطوط العريضة» أوّلًا، ثمّ في «أداة العمل». فلا يمكن أن يصدر تجديد لكنيسة لبنان عن مبادرات تتّخذها السلطة الكنسيّة وحدها، لأنّ

(٢٥) الإرشاد، عدد ٤٤.

سائر فئات المؤمنين تطالب بنصيبها من المسؤوليّة.

لذلك، فإنّ الإرشاد يتحدَّث عدّة مرّات عن دور فعّال يُعطى «الكهنة والشمامسة والرهبان والراهبات والعلمانيّين»[٢٦]، في إدارة مجلس البطاركة والأساقفة، ودواوين البطاركة والأساقفة، والمجالس الرعويّة، وفي عمل تنشئة البالغين الدينيّة، وفي مؤسّسات التربية والإسعاف الاجتماعيّ إلخ. نجد أنفسنا هنا أيضًا أمام تغيير في العقليّة. فمن حسن الحظّ أنّ السينودس بدأ عملًا تفكيريًّا مع جميع المسيحيّين، بحيث أصبحوا يشعرون بعد اليوم بأنّهم مسؤولون عن كنائسهم. يجب مواصلة هذا التفكير الذي سيؤثّر تأثيرًا مفيدًا في مستوى التعاون بين الكنائس. والعلمانيّون الذين سيُدعون إلى إشغال مواكز مسؤوليّة في داخل الكنائس، سيُدعون في أغلب الأحيان نظرًا إلى كفاءاتهم الشخصيّة والتقنيّة. والحال أنّ هذه الكفاءات ليست من مجال اختصاص كلّ من الكنائس. فإذا كان من المرغوب في أن يعيَّن علمانيّون في الهيئات التي تهتمّ بمساعدة العائلات ذات الأوضاع العسيرة، فلا بأس أن تنتمي هذه العائلات إلى إحدى الكنائس وأن ينتمي المستشار العائليّ إلى كنيسة أخرى، لأنّ المشاكل العائليّة هي مشاكل مشتركة.

أمّا الرهبان والراهبات، فإنّهم يُشرفون، إلى حدّ بعيد، على المؤسّسات التعليميّة والتربويّة، والمؤسّسات الاستشفائيّة وهيئات المساعدة الخيريّة. إنّها مجالات حسّاسة بوجه خاصّ، جيّدًا لو قام فيها تعاون واسع جدًّا، لأنّ خصوصيّة كلّ من الكنائس لا تقوم فيها إلّا بدور محدود. وإذا صحّ أنّ تلك المؤسّسات كثيرًا ما يُشرف عليها رهبان وراهبات، فإنّ المستخدمين فيها علمانيّون، ومن المرغوب فيه هنا أيضًا أن يصل أولئك العلمانيّون هم أيضًا إلى مناصب مسؤوليّة، لا لأنّ عدد الراهبات والرهبان ينخفض، بل لأنّ هذه المراكز تعود إليهم.

نترقّف هنا على بعض النصائح الموجّهة إلى الكهنة والرهبان

---

(٢٦) على سبيل المثال، عدد ١٠ و٥١ و٦٩ و٨١.

والراهبات. يشير الإرشاد إلى أنّ العلمانيّين يريدون

«أن يشاركوا مشاركة فعّالة ومسؤولة في حياة الكنيسة، في حضن مختلف البنى ومختلف المجالس الرعويّة، ويتظرون غالبًا أن تدعوهم الكنيسة وتمنحهم ثقتها»[٢٧].

وبعبارة أخرى، يطلب النصّ إلى الإكليرس أن يثق بهم ويفتح لهم باب التعاون.

ويدعو الإرشاد الكهنة، بوجه مباشر،

«إلى تنمية روح التعاون مع المؤمنين، إذ لا يخفى على رعاة الكنيسة مدى أهمّيّة إسهام العلمانيّين في خير الكنيسة كلّها، وهم يعلمون أنّ المسيح لم يُقمهم للقيام وحدهم برسالة الكنيسة الخلاصيّة في العالم»[٢٨].

وهناك توصية مماثلة توجّه إلى الرهبان والراهبات:

«في المؤسّسات التي يُشرف عليها الرهبان والراهبات، كثيرًا ما نرى أنّ العلمانيّين يقومون بجزء كبير من العمل. فلا بدّ من الاعتراف التامّ بـ «مكانهم» والعهدِ إليهم بمناصب مسؤوليّة تناسب كفاياتهم»[٢٩].

فالنداء واضح جدًّا: لا تُمنَعْ أيّة فئة من المؤمنين من ممارسة المسؤوليّات بقدر دعوتها وكفاءاتها، لأنّ الوحدة في التنوُّع تقتضي أن يستطيع كلّ واحد أن يجد مكانه.

ومع ذلك، فإنّ التحفّظ الذي كثيرًا ما تعبّر عنه السلطة الكنسيّة والإكليرس هو أنّ العلمانيّين ليسوا مؤهَّلين لمثل تلك المسؤوليّات. إنّ هذه الملاحظة، التي تبدو في الغالب مطابقة للواقع، لا تُنكَر، ولكنّها ليست عذرًا كافيًا لمواصلة حفظ مناصب المسؤوليّة للإكليرس ونُظَرائه (الرهبان والراهبات)، بل تؤدّي بالعكس إلى مطلب آخر لا يقلّ أهمّيّة عن الأوّل، وهو تأمين تنشئة مسيحيّة لبالغين من مستوى رفيع، في

---

(٢٧) الإرشاد، عدد ٤٥.

(٢٨) المرجع نفسه، عدد ٦٢.

(٢٩) المرجع نفسه، عدد ٥٥.

الرعايا[٣٠]، ولا سيّما عَبرَ المواعظ[٣١]، وفيَ الحركات[٣٢]، وفي مراكز التنشئة للبالغين[٣٣]، وفي معاهد اختصاصيّة ذات مستوى جامعيّ[٣٤].

وفي نصّ صغير منفرد[٣٥]، لا بل أيضًا في تعداد الأشخاص المسؤولين في الكنيسة، يذكر الإرشاد للشمامسة أكثر من مرّة. في أيّامنا، ليست الشمّاسيّة في كنائس لبنان إلّا درجة تمهّد للكهنوت. أمّا الشمّاسيّة الدائمة، الدعوة الخاصّة، فلا ينبغي خلطها بدعوة الكاهن ودعوة العلمانيّين، ومن المحبّذ أن تعاد إلى ما كانت عليه. إنّ التقليد هو قديم، لكنّه لا يطبّق في أيّامنا. والرغبة في العودة إلى التقليد هي شكل آخر لدعوة كنائس لبنان إلى التمييز الصحيح بين مختلف أدوار فئات المسيحيّين في حضن الكنيسة. وبهذه الطريقة يمكن جسمًا عضويًّا أن يُبنى مرّة أخرى، بحيث يجد فيه كلّ عضو مكانًا مختلفًا عن أماكن سائر الأعضاء ومتكاملًا مع سائر الدعوات الكنسيّة.

وفي تجدّد الكنيسة، نجد جميع فئات المؤمنين في مكانها. وحين أوصى البابا مجلس البطاركة والأساقفة أن يؤلّف لجنة خاصّة لقبول الإرشاد وتطبيقه، طلب أن يُضمّ إليها «أساقفة وكهنة وشمامسة ورهبانٌ وراهبات وعلمانيّون»[٣٦]، أي جميع الفئات، كلّ واحدة في مكانها، في ممارسة دعوتها الخاصّة.

وبين الفئات التي لها مكانها الخاصّ في كنيسة لبنان، كما ذكرنا، يحتلّ العلمانيّون مكانًا مهمًّا. ومع ذلك، فإنّ هذا المكان لا يجوز أن يُنسينا أنّ مسؤوليّتهم المسيحيّة الأولى تمارَس في دورهم في المجتمع المدنيّ.

---

(٣٠) الإرشاد، راجع عدد ٦٦.
(٣١) المرجع نفسه، عدد ٣٩.
(٣٢) المرجع نفسه، عدد ٧٤.
(٣٣) المرجع نفسه، عدد ٤٥.
(٣٤) المرجع نفسه، راجع عدد ٧٥.
(٣٥) المرجع نفسه، عدد ٦٣.
(٣٦) المرجع نفسه، عدد ١٢٤.

وهنا إشارة إلى ما ورد في المجمع الڤاتيكانيّ الثاني:

«إليهم يعود، بسبب دعوتهم الخاصّة، أن يبتغوا ملكوت الله، بإدارة الشؤون الزمنيّة وبتنظيمها بحسب مشيئة الله (...). إلى هذا المكان يدعوهم الله، وإذا قاموا بمهمّتهم الخاصّة وانقادوا لروح الإنجيل، استطاعوا أن يسهموا في تقديس العالم، من الداخل، على طريقة الخميرة، وأظهروا المسيح للآخرين، بشهادة حياتهم أوّلًا، وإشعاع إيمانهم ومحبّتهم التي توحّدهم بربّهم»[٣٧].

إنّ هذا القول يتّخذ أهمّيّة فريدة في منطق الإرشاد. بما أنّ المراد به أن يشجّع الكنائس على اتّخاذ مكانها تمامًا في حضن المجتمع، وعلى التعارف والبناء، وعلى وضع ثرواتها البشريّة والروحيّة والثقافيّة في تصرّف الجميع، فمن الأهمّيّة بمكان أن يلتزم العلمانيّون المسيحيّون بالقيام بدورهم كمسيحيّين ملتزمين في حضن المجتمع. وسأعود إلى هذا الأمر، حين يدور الكلام على الوحدة في التنوّع على مستوى المجتمع اللبنانيّ.

أمّا هنا، فلا بدّ لي أن أشير إلى أنّ الدور الأوّل المفروض على المسيحيّ العلمانيّ هو عمله في المجتمع المدنيّ، وإلى أنّ التزامه في بنى الكنيسة لا يأتي إلّا في المرتبة الثانية وإن كان هذا الالتزام مُهمًّا للكنيسة.

«بالإضافة إلى تلك الخدمة الرسوليّة التي تعني جميع المؤمنين من دون استثناء، قد يُدعى العلمانيّون أيضًا بطرق مختلفة إلى إسهام مباشر في الخدمة الرسوليّة التي تقوم بها السلطة الكنسيّة»[٣٨].

حين جاء البابا يوحنّا بولس الثاني إلى لبنان ليرقّع الإرشاد ويقدّمه، وجّه كلامه أوّلًا إلى الشبيبة في حريصا، قائلًا لهم:

«أختاركم اليوم شهودًا مفضّلين مؤتمنين على رسالة تجديد تحتاج إليها الكنيسة وبلدكم. وأحثّكم على أن تشاركوا مشاركة فعّالة في تطبيق توجيهات الجمعيّة السينودسيّة»[٣٩].

---

(٣٧) الإرشاد، عدد ٤٥.

(٣٨) المرجع نفسه، عدد ٤٥.

(٣٩) النصّ في جريدة *L'Orient-Le Jour* ١١/٥/١٩٩٧.

إنّ تلك الأرلويّة المعطاة الشبيبة تبدو لي رمزيّة في وَجهين: من جهة، لأنّ هؤلاء الشبّان والشابّات هم علمانيّون. فالبابا لم يشدّد على السلطة الكنسيّة في هذه الحفلة.

ومن جهة أخرى، لأنّ الكلام موجّه إلى الشبيبة، أي إلى أكثر فئات الشعب اللبنانيّ انتقادًا، وإلى أشدّها خيبةَ أمل وفتور عزيمة. إذا وجب تجديد الكنيسة والمجتمع، وجب الاعتماد على قوى تجديد. وهذه القوى تأتي من العلمانيّين بوجه عامّ. في أثناء انعقاد الجمعيّة السينودسيّة،

«أطلعت الشبيبة آباء السينودس على انتقاداتها ومطالبها، بصراحة وشجاعة، مظهرة بذلك أنّها تنتظر تغيرات حاسمة في الكنيسة. طالبت بأعمال مدروسة باسم الإنجيل، وعبّرت عن آلامها أمام الانقسامات الكنسيّة التي تقف عقبة في طريق الرسالة. وتمنّت أن تجد كنيسة تُظهر وحدتها في التنوّع، وتكون في مكان حياة أخويّة وتقاسم وتجدُّد ورجاء»[٤٠].

فبدا أنّ تمنّياتها تطابق تمامًا تمنّيات البابا للبنان. ولذلك طالب البابا بمكان خاصّ بها:

«في شعور الأمّة اللبنانيّة وفي حضن الكنيسة في لبنان، لا بدّ أن تحتلّ الشبيبة مكانة مهمّة وتكون قوّة تجديد قوميّ وكنسيّ، بمشاركتها في مختلف بنى الحياة الاجتماعيّة وفي مراجع القرار»[٤١].

الوحدة فوق الانقسام

في ما يختصّ بالعلاقات بين الكنائس الكاثوليكيّة والكنائس الأرثوذكسيّة، لم يعد في إمكاننا أن نتحدّث عن الوحدة في التنوُّع، لأنّ هناك تمزُّقًا. فلا يدور الكلام بعد الآن على الحقّ في اختلاف كلّ واحدة منها. إذا كان الاختلاف غنى، شرطَ أن يُعاش كما يجب، فالانقسام ليس غنى. إنّ الانقسام بين المسيحيّين هو حجر عثرة يجب السعي لتذليله.

---

(٤٠) الإرشاد، عدد ٥١.

(٤١) المرجع نفسه.

لكنّ الكنائس الأرثوذكسيّة كان لها مكانها في حضن السينودس، في أثناء الإعداد وفي انعقاده برومة. وهذا يعني أنّ الانقسام، إذا كان اليوم واقعًا، يبقى واقعًا غير مقبول، يريد الجميع أن يتخطّوه. فالوحدة مرغوبٌ فيها، وإن لم تُحقَّق تمامًا حتّى اليوم. وأفضل السبل للوصول إليها هو، بلا شكّ، الابتداء بالاحترام المتبادل التامّ.

وهنا أيضًا ينبثق الأمل أوّلًا من النظر إلى الواقع. إنّ الواقع جرح حسّاس بوجه خاصّ في لبنان، لأنّ المسيحيّين الكاثوليك والأرثوذكس يعيشون في بلد واحد، وأحيانًا في حضن عائلة واحدة. فالشعور بالجرح هو أشدّ ممّا هو في بلدان أخرى لا يسكنها تقريبًا إلّا كاثوليك أو أرثوذكس. والشعور بالواقع يفرض أيضًا الاعتراف بكلّ ما هو مشترك بين هذه الكنائس، علمًا بأنّ العناصر الموحِّدة هي أهمّ بكثير من العناصر التي تفرّق الكنائس الشقيقة هذه. وهناك عنصر من عناصر الوحدة القائمة، لا بدّ من استغلاله بطريقة فضلى للوصول إلى المزيد من الألفة.

بين الكنائس الكاثوليكيّة الشرقيّة في لبنان والكنائس الأرثوذكسيّة عنصر مشترك هو تقاليدها. إذ إنّ أغلبيّتها تنتمي إلى التراث الإنطاكيّ. في الواقع،

«نرى أنّ الأرثوذكس والكاثوليك يستعيدون شعورهم بالتقاليد الكنسيّة والاجتماعيّة القديمة التي تجمع بعضهم ببعض، وبأخوّتهم في المسيح»(٤٢).

فيجوز القول إنّ عودة صحيحة إلى تلك التقاليد الشرقيّة المشتركة قد تكون في الوقت نفسه ترسيخًا للروابط بين الكنائس الشرقيّة وخميرة تجديد.

«بوجوه متنوّعة، بثّر التقليد الرسوليّ الثقافات الحاضرة في لبنان، آخذًا بعين الاعتبار المشاعر الروحيّة الوافرة واللغات المحلّيّة. وإلى جانب التقليد الأرمنيّ الذي، بالرغم من فرادته، لا يخلو من الصلة بالآباء القبّدوقيّين

(٤٢) الإرشاد، عدد ١٢.

والسريان، هناك التقليد الإنطاكيّ القديم، الآراميّ والهلّينستيّ الأصل في آن واحد. جميع هذه الجذور تشترك فيها الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة والكنائس الأرثوذكسيّة»[٤٣].

فهناك إذًا جذور مشتركة تدلّ، حتّى في التراث نفسه، على تنوّع حقيقيّ في داخل الوحدة.

حتّى إن استحال الكلام على وحدة في التنوّع، فمن الواضح أنّنا أمام تخطيط تفكيريّ واحد يرشد الخواطر المتعلّقة بالعلاقات بين الكاثوليك والأرثوذكس.

وفي ما يختصّ بالطوائف الكنسيّة، المتحدّرة من الإصلاح[٤٤]، فإنّ الوحدة التي تمّت بينها وبين الكنيسة الكاثوليكيّة لا تغطّي من المجالات ما تغطّيه الوحدة مع الكنائس الأرثوذكسيّة. ومع ذلك، فهناك عناصر وحدة، وبالاستناد إليها أصبح ممكنًا أن تقوم علاقات وثيقة، مع الأمل في إمكانيّة تنميتها.

الوحدة في التنوّع: العناصر التي تؤلّف الأمّة اللبنانيّة

من الواضح أنّ الوحدة على مستوى بلد من البلدان ليس لها المعنى المبنيّ على جماعة في الإيمان. إنّ التنوّع بين الطوائف اللبنانيّة لا يخفى على أحد. فهي تنتمي أوّلًا إلى تراثَين دينيَّين مختلفَيْن. وفي داخل كلّ منهما، نجد فوارق أخرى. وهناك تحالفات مع بلدان من المنطقة أو بلدان بعيدة، كثيرًا ما تتّبع الهويّة الطائفيّة. فمن الطبيعيّ أن يشعر سنّيّ لبنانيّ بأنّه قريب من بعض بلدان المنطقة، تعيش فيها أكثريّة سنّيّة. أمّا الماروني، الذي ليس له مثل هذا القرب، فيشعر بأنّه قريب من أوروبّا المسيحيّة (إيطاليا في الماضي، فرنسا في أيّامنا)، وهو قرب لا يشعر به السنّيّ، إلخ.

---

(٤٣) الإرشاد، عدد ٤٠.

(٤٤) عبارة لا تخلو من التعقيد، لعدم استعمال عبارة «الكنائس البروتستانتيّة»، علمًا بأنّ كلمة كنيسة ليس لها المعنى نفسه عند الجميع.

إنّ الإرشاد لا يدخل في متاهة من العلاقات المعقّدة تصوغ هويّة كلّ من الطوائف، بل يبني بالأحرى وحدة اللبنانيّين على وحدة المصير في داخل البلد.

«يُدعى اللبنانيّون إلى الاعتناء ببلدهم، وإلى المحافظة بلا ملل على الأخوّة، وعلى بناء نظام سياسيّ واجتماعيّ عادل، ومُنصف، يحترم الأشخاص وجميع النزعات التي تؤلّفه، لكي يشيدوا معًا بيتهم المشترك (...). ومن جهة أخرى، على كلّ شخصيّة سياسيّة أو دينيّة، وكلّ مجموعة أن تأخذ بعين الاعتبار حاجات سائر المجموعات وتطلّعاتها المشروعة، والخير العامّ الذي يشترك فيه مجمل الأسرة البشريّة»(٤٥).

والمثال الأعلى هذا يفترض قيام حوار بين أعضاء مختلف الأديان، «حوارٍ يراعي حسّاسيّات الأشخاص ومختلف الطوائف»(٤٦). وهذا الحوار يفترض إقامة علاقات بين الأشخاص ورفض كلّ حرمان. وسيكون حوار حياة وعمل مشترك في سبيل خير المجتمع، ويكون أيضًا حوارًا دينيًّا يتعلّم فيه كلّ واحد أن ينظر إلى الآخر باحترام وتقدير.

لكنّ الإرشاد يذهب إلى أبعد من ذلك، فيلاحظ أنّ لبنان لا يستطيع أن يعيش منعزلًا عن إطاره:

«إنّ الكنيسة الكاثوليكيّة، المنفتحة على الحوار والتعاون مع مسلمي لبنان، تريد أن تكون منفتحة أيضًا على الحوار والتعاون مع مسلمي سائر البلدان العربيّة، علمًا بأنّ لبنان هو جزء منها لا يتجزّأ (...). إنّ مسيحيّي لبنان ومجمل العالم العربيّ، الذين يفتخرون بتراثهم، يسهمون بنشاط في تحسين الثقافة (...). أريد أن أشدّد، عند مسيحيّي لبنان، على ضرورة المحافظة على روابط التضامن مع العالم العربيّ وعلى توثيقها. وأدعوهم إلى اعتبار انضمامهم إلى الثقافة العربيّة، التي أسهموا فيها إلى حدّ بعيد، مكانًا مفضّلًا يقيمون فيه، بالاتّفاق مع سائر مسيحيّي البلدان العربيّة، حوارًا أصيلًا وعميقًا مع المؤمنين المسلمين»(٤٧).

---

(٤٥) الإرشاد، عدد ٩٤.

(٤٦) المرجع نفسه، عدد ٩٠.

(٤٧) المرجع نفسه، عدد ٩٣.

إنّ تلك الكلمات تدوّي بشدّة في آذان العديد من المسيحيّين. فهم مدعوّون إلى بناء مجتمع بلدهم مع سائر اللبنانيّين، لا بل مجتمع منطقة الشرق الأدنى، مع مسلمي ومسيحيّي سائر بلدان المنطقة. يجب أن ننتبه إلى إيجابيّة تلك التوصيات. ليس المسيحيّ مدعوًّا إلى تشرّب الثقافة العربيّة، بقدر ما هو مدعوّ إلى أن يقوم بدور فيها. ويمكننا أن نقارِن هذا النصّ بتوصية موجَّهة إلى المؤمنين العلمانيّين:

«من الأمور المهمّة أن يلتزم مؤمنون علمانيّون التزامًا مباشرًا البحث الفكريّ والدرس، لكي تنمو ثقافة مسيحيّة حقيقيّة في العالم العربيّ، بدعم من الرعاة»[٤٨].

من الواضح أنّ المطلوب ليس أن يفقد المسيحيّ اللبنانيّ هويّته الخاصّة، فهذا التأويل يناقض روح مجمل النصّ والتوصيات بالعودة إلى ينابيع التراث الإنطاكيّ الآراميّ واليونانيّ[٤٩]، أو بالبقاء في حوار مع ما وصل إليه التراث العربيّ في علم اللاهوت[٥٠]. إنّ النصّ يدافع بشدّة في صفحات أُخَر عن حقّ المسيحيّ وواجبه في أن يبقى أمينًا على هويّته الثقافيّة والكنسيّة الخاصّة. فما يُشدَّد عليه في هذه الفقرة هو أنّ شعور المسيحيّ بفرادته لا يجوز أبدًا أن يبعده عن بيته. إنّه مسيحيّ في هذا البلد، في هذه المنطقة، ودعوته هي أن يبني فيها المجتمع انطلاقًا من القِيَم المسيحيّة.

بصفته مسيحيًّا أوّلًا، عليه واجب تضامن مع سائر مسيحيّي المنطقة، لا بل إلى أبعد منها، نحو المسيحيّين «الذين يقون أحيانًا منسيّين في إيران والسودان وأفريقيا الشماليّة»[٥١]. وبالمعنى نفسه، يستشهد البابا بإحدى رسائل بطاركة الشرق الكاثوليك، فيقول:

«لا يريد حضورنا المسيحيّ أن يكون حضورًا لأنفسنا. فإنّ المسيح لم

---

(٤٨) الإرشاد، عدد ٤٥.
(٤٩) المرجع نفسه، عدد ٤٠.
(٥٠) المرجع نفسه، عدد ٧٧.
(٥١) المرجع نفسه، عدد ٨٢.

يؤسّس الكنيسة لكي تكون في خدمة نفسها، بل لتكون كنيسة شاهدة وحاملة رسالة، رسالة مؤسّسها ومعلّمها»[٥٢].

من الطبيعيّ إذًا رؤية الفصل المخصّص للكنيسة في خدمة المجتمع، الذي يعالج بوجه خاصّ مختلف المؤسّسات الكنسيّة في المجالات الاجتماعيّة والتربويّة، يتّجه الاتّجاه نفسه. فإنّ تلك الخدمات الكنسيّة ليست خدمات للمؤمنين أنفسهم وحسب، بل خدمات أيضًا لمصلحة البلد كافّة. هكذا يجب أن تُمارَس، وهكذا يجب أن تتّجه. ففي تلك المؤسّسات يمكن أن تكوّن عقليّة انفتاح وتعاون وأخوّة.

والموضوع الأخير من الفصل نفسه يتطرّق إلى التزام المسيحيّ السياسيّ. كما ورد أعلاه، فإنّ هذا الالتزام هو دور المؤمن العلمانيّ الخاصّ، ليغلّب القيَم الإنجيليّة في حضن المجتمع كلّه. والإرشاد يتّبع أسلوبًا قاطعًا في الكلام على هذا الموضوع.

إنّه ينذّد من جهة بكلّ أشكال الحياة المزدوجة.

«فلا يستطيع المسيحيّون إذًا أن تكون لهم حياتان متوازيتان: من جهة، الحياة التي يسمّونها الحياة الروحيّة بما لها من قِيَم ومطالب، ومن جهة أخرى، الحياة المسمّاة زمنيّة، التي يُقال إنّ لها قِيَمًا مختلفة عن الأولى أو مناقضة لها»[٥٣].

ومن جهة أخرى، يواصل النصّ سياقه، مشيرًا إلى ضرورة التزام المسيحيّ المطلقة في هذا المجال،

«لكي يستطيع المؤمنون العلمانيّون أن يُنعشوا النظام الزمنيّ إنعاشًا مسيحيًّا، لا يمكنهم على الإطلاق أن يتخلّوا عن المشاركة في السياسة، أي في العمل الاقتصاديّ والاجتماعيّ والتشريعيّ والإداريّ والثقافيّ، الذي يتوخّى تعزيز الخير العامّ عضويًّا وعن طريق المؤسّسات»[٥٤].

فالإرشاد كلّه يطلب إلى المسيحيّين أن يلتزموا في المجتمع اللبنانيّ،

---

(٥٢) الإرشاد، عدد ٣٣.

(٥٣) المرجع نفسه، عدد ١١٢.

(٥٤) المرجع نفسه، عدد ١١٢.

لا بل في مجتمع المنطقة، بكلّ ما عندهم من نشاط، وأن يقاوموا الاستسلام إلى الانطواء على النفس، أمام الصعوبات التي ورد ذكرها (الاحتلال العسكريّ، والوضع الاقتصاديّ، ومشكلة الأشخاص المهجَّرين، ومخاطر التطرُّف والشعور بحرمان الحقوق[٥٥]، أو غيرها من المخاطر). لكنّ هذه التوصية بالعمل في سبيل الخير العامّ، بحيث يكون الجميع مسؤولين حقًّا عن الجميع[٥٦]، لها ما يقابلها، لكي يكون ذلك ممكنًا. وأهمّ الأمور هو «تقاسم المسؤوليّات بطريقة عادلة في حضن الأمّة». هذا وأنّ البابا، في زيارته لبنان، ومنذ نزوله من الطائرة، ردَّد الكلمات نفسها:

«في لبنان الجديد هذا، الذي تُعيدون إعماره شيئًا فشيئًا، من المهمّ أن تعطوا كلّ مواطنٍ مكانًا، ولا سيّما الذين يعمرهم شعور وطنيّ مشروع، فيرغبون في التزام العمل السياسيّ أو الحياة الاقتصاديّة. ومن وجهة النظر هذه، يبدو أنّ الشرط السابق لكلّ ممارسة ديمقراطيّة هو التوازن العادل بين قوى الأمّة الحيّة، بحسب مبدأ الاستتابة الذي يقتضي مشاركة كلّ واحد ومسؤوليّته في اتّخاذ القرارات»[٥٧].

وهناك مطلب أساسيّ هو احترام حقوق الإنسان، قاعدة ثقة اللبنانيّين بمؤسَّسات المجتمع. ولذلك يخصّص البابا لها قسمًا من الإرشاد، مستعملًا عبارات حازمة[٥٨].

وأخيرًا، وعلى الأخصّ، لا بدّ من المصالحة الحقيقيّة. إنّ البابا، في أثناء زيارته وفي الإرشاد، لم يكفّ عن دعوة المسيحيّين خاصَّةً واللبنانيّين عامّة إلى الصفح والمصالحة والسلام والمبادرات الأخويّة، وإقامة الجسور، وإلى تجنّب كلّ ما يجرح أو يقسّم.

«فإنّ السلام يفترض من قِبَل الجميع إرادة ثابتة لاحترام الأخوّة، وخطو الخطوات نحوهم؛ ويمكن الحصول عليه خاصّةً بالمحافظة على خير

---

(٥٥) الإرشاد، عدد ١٧.

(٥٦) المرجع نفسه، عدد ٩٥.

(٥٧) النصّ في جريدة *L'Orient-Le Jour* في ١٠/٥/١٩٩٧.

(٥٨) الإرشاد، عدد ١١٤-١١٦.

الأشخاص والجماعات البشريّة التي تؤلّف وطنًا واحدًا، في ما يمكن تسميته «اقتصاد سلام»[٥٩].

الخاتمة

إنّ الوثيقة، التي تصفّحناها باتّباعنا سياق فكرة الوحدة في التنوُّع، يُراد بها افتتاح مستقبل جديد للبنان. يُراد بها إغلاق فترة الحرب، وعدم العودة إلى ما جرى، بل ترك الجروح تلتئم. يُراد بها عرض صادق لتعاون إيجابيّ من قِبَل الكنائس المسيحيّة نحو البلد:

«إنّه إسهام من الكنيسة الجامعة في الوصول إلى وحدة أكبر في الكنيسة الكاثوليكيّة في لبنان، وإلى تخطّي الانقسامات بين مختلف الكنائس وإلى تنمية البلد، التي يُدعى جميع اللبنانيّين إلى المشاركة فيها»[٦٠].

إنّه يطلب الكثير إلى المسيحيّين اللبنانيّين، معتبرًا أنّ الدعوة إلى الالتزام هي الشرط لتوفير الأمل للمسيحيّين واللبنانيّين. والتوجيهات إلى هذا العمل تبدو واضحة.

إحترام هويّة كلّ من الطوائف، واحترام الدعوة الخاصّة بكلّ مسيحيّ، ودعوة الجميع، انطلاقًا من فرادتهم المحترَمَة، إلى العمل في سبيل الخير العامّ، خير الكنيسة العامّ عن طريق عمل رعويّ مدروس، وخير لبنان بالتزام صادق في جميع مجالات الحياة القوميّة.

تغيير العقليّة، والابتعاد عن المواقف الدفاعيّة، وفتح الآفاق، ومعرفة الذين هم مختلفون واحترامهم، والشعور بالمصير المشترك الذي يربطهم جميعًا.

إنّ هذا البرنامج يتطلّب الكثير من الجميع. ولا يستطيع أحد أن يقرأ هذا النصّ بصدق من دون أن يشعر بدعوة إلى تغيير تصرّفه، وإلى التحوُّل في العمق.

---

(٥٩) الإرشاد، عدد ٩٨.

(٦٠) راجع جريدة *L'Orient-Le Jour* في ١٠/٥/١٩٩٧.

ومَن ركّز مثل تلك المطالب على حسن إرادة البشر وحدها، نقصه حسّ الواقع. فالبابا، عبر مجمل أعمال السينودس، جرؤ على عرض مثل هذا البرنامج على اللبنانيّين، ولا سيّما على المسيحيّين الكاثوليك، لأنّه على يقين بأنّ الراعي الإلهيّ، الذي هو نور العالم وقدرة الله، يسير في الطريق معهم.

(نقله إلى العربيّة الأب صبحي حموي)

صدر عن دار المشرق